سجن أبو غريب يعمق مأزق الاحتلال: الفضائح الأخلاقية تكشف البربرية الأمريكية

03-5-2004

مقال هيرش، والذي يكشف تواطؤ كبير بين المسئولين الأمريكان على حالات الانتهاك الشديد في سجن أبو غريب، يفضح ما هو أخطر من ذلك، إذ يبين أن هناك تقارير وتحقيقات عسكرية أعدت على مستوى عال، وتمت بأمر من القائد سانشيز شخصيا، وأن هذه التقارير كشفت مسبقا كثيرا من الفظائع التي ترتكب بسجن أبو غريب، ولعل أخطر هذه التقارير

بقلم محمد سليمان

يبدو أن المستنقع العراقي الذي وقعت فيه الإدارة الأمريكية لا يقف عند حدود الخسائر العسكرية الفادحة، التي ما زالت القوات الأمريكية تحاول إخفاءها إلا أن المعلومات بدأت تتسرب بشكل كبير عن آلاف القتلى والجرحى من الجنود الأمريكان.

ولا يقف المستنقع العراقي عند حدود عجز الإدارة الأمريكية عن إدارة البلاد والتعامل مع المجتمع العراقي والقوى السياسية، والفشل في تطبيق الخطط المعدة مسبقا حول إعمار العراق، بل وظهور ضحالة هذه الخطط وضعف بنيتها المعلوماتية حول طبيعة المجتمع العراقي وفئاته المختلفة. ولم يقف المأزق كذلك عند حدود فضائح "الجنود المرتزقة" الذين استأجرهم القادة الأمريكان للمساهمة في قمع المقاومة العراقية وحماية مسئوليها ومصالحها، أو عند حدود فضائح عقود شركات الإعمار وارتباطها الشديد بالمسئولين الأمريكيين، أو عند حدود استخدام الجيش الأمريكي للأسلحة المحرمة دوليا وأخلاقيا ضد المدنيين والأبرياء، واستباحته مبدأ العقاب الجماعي، وقتل الأطفال والنساء والمدنيين.

لم تكتف الإدارة الأمريكية بالفضائح السابقة وما خفي كان أعظم، بل أضافت إلى سجلها العامر بالإيمان المسيحي النقي !! الفضائح التي تكشفت حديثا مع فظائع سجن أبو غريب، والتي حاولت الإدارة الأمريكية التبرء منها، لكن التحقيقات مع الجنود المتهمين بالتعذيب بدأت تكشف عن أنّ هذه الفظائع ارتكبت وفق ترتيب عالي المستوى واستنادا إلى فلسفة أمريكية عنصرية في التعامل مع العرب والمسلمين غرستها الإدارة الأمريكية لدى جنودها في العراق، بحيث أصبح هؤلاء الجنود يتعاملون مع الشعب العراقي وكأنه في مرحلة أقل من البهائم والحيوانات، بمعنى نزع أي صفة إنسانية عنه، بل ونزع كرامة التعامل مع الحيوانات عنه في كثير من الأوقات.

لقد كشفت الصور الكثير مما كانت تحاول الإدارة الأمريكية إخفاءه عن الناس، وصدمت الصور المتسربة العالم أجمع، وقد بدأ الكثير يتساءل عن المستوى الذي وصلت إليه الإدارة الأمريكية - والتي لا يمكن أبدا تبرئتها من المسؤولية الأخلاقية والأدبية والتاريخية عما حدث في سجن أبو غريب – وعما إذا كان الجيش الأمريكي الذي جاء لنشر الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان !! سيعود بالبشرية إلى عصور البربرية الأولى!، عفوا البربرية لم تعرف ما عرفه سجن أبو غريب!، وقد فاقت أعمال الجنود الأمريكان ومسئوليهم الأمنيين أعمال الأنظمة السلطوية العربية القمعية، التي وإن جرأت على قتل الناس وتعذيبهم، فإنها لم تجرؤ على اغتصاب النساء وهتك الأعراض، والتلاعب بكرامة الناس وشرفهم علنا! والافتخار بذلك من خلال صور توثق البطولات الكبرى في التعامل مع الأسرى المربوطين المعزولين وفي تعذيبهم!.

لقد كشفت الصور كثيرا، وهناك صور أخرى لم تنشر على نطاق واسع أسوأ بكثير مما شاهده كثير من الناس، لكن مقال المحقق الصحفي المشهور سيمور هرش في صحيفة

نيويوركر (1/5/2004) بعنوان "التعذيب في سجن أبو غريب" يوثق لنا كثيرا من التصرفات والسلوكيات وأساليب التعذيب التي كانت تتم في سجن أبو غريب، ومن خلال تقارير أمنية أمريكية ومن خلال شهادات الجنود الأمريكيين أنفسهم.

ويكشف مقال هيرش عن أن تلك الممارسات لم تكن تتم وفق اجتهادات فردية أو تصرفات محدودة، وإنما انطلاقا من فلسفة وقناعات تسيطر على القادة العسكريين والأمنيين الأمريكان، وبتوجيه كامل من ضباط الاستخبارات الأمريكية، فأحد الجنود المتهمين بالتعذيب يجيب على سؤال المحقق بالقول "هل تعتقد أن عددا من الجنود الفتيان من فيرجينيا كانوا يقومون بهذه التصرفات اجتهادا منهم، دون توجيه من أحد"، بل ويؤكد أحد أبرز الجنود المتهمين في القضية في رسائله الشخصية لأهله أن ما قام به من فظائع بحق الأسرى العراقيين كان يتم وفق أوامر من ضباط الاستخبارات، وأنه سأل مديره في السجن إذا كان يقوم به من عمليات تعذيب سيعرضه للمساءلة من باب إساءة معاملة السجناء، فأجابه: "لا تقلق بشأن ذلك".
ويؤكد عدد من الجنود المتهمين أن المسئولين عنهم وضباط الاستخبارات كانوا يقنعونهم أن ما يقومون به من عمليات تعذيب "مهمة عظيمة"، ويؤكدون لهم أن تعذيب العرب وتعريتهم وانتهاك أعراضهم هي الوسيلة الوحيدة التي تجبرهم على الاعتراف بما ارتكبوه وبما لم يرتكبوه أيضا!.
إحدى المجندات الأمريكيات في السجن كانت مهمتها – كما تعترف هي – إبقاء السجناء مستيقظين إلى فترة طويلة، ومنعهم من النوم والراحة بأي طريقة، بل كانت تعليمات ضباط الاستخبارات بخصوص عدد من المعتقلين هي إبقاؤهم في غرفهم الانفرادية متكشفين من الملابس أو من أغلب الملابس، ومنعهم أياما من الذهاب إلى الحمامات للتمكن من قضاء حاجتهم!، ومنعهم من الماء والطعام .. الخ .

مقال هيرش، والذي يكشف تواطؤ كبير بين المسئولين الأمريكان على حالات الانتهاك الشديد لكل القيم الإنسانية في سجن أبو غريب، يفضح ما هو أخطر من ذلك، إذ يبين أن هناك تقارير وتحقيقات عسكرية أعدت على مستوى عال، وتمت بأمر من القائد سانشيز شخصيا، وأن هذه التقارير كشفت مسبقا كثيرا من الفظائع التي ترتكب بسجن أبو غريب، ولعل أخطر هذه التقارير هو التقرير الذي كتبه المحقق "تافوبا" بناء على مشاهدات مباشرة وشهادات الجنود الأمريكيين والتحقيقات التي أجراها مع الجنود الذين كانوا يقومون بالتعذيب، التقرير - والذي وصف هيرش لغته بالمؤدبة - حاول قدر الإمكان تجنب إحراج القيادة العسكرية الأمريكية كشف اللثام عن كثير من الأمور، وأبرز كثيرا من الفظائع التي تتم في السجن.

يسرد التقرير عددا من حالات التعذيب والإساءة، ومنها : كسر أضوية كيماوية وسكب سوائل فسفورية على المحتجزين، ضرب المحتجزين بالكراسي والمطارق اليدوية، تهديد الذكور بالاغتصاب، السماح للحرس بغرز الجراح الناشئة عن التعذيب وضرب المحتجزين بجدران السجون، انتهاك عرض المساجين بطرق متعددة منها إدخال عصي المقشات في ..، استخدام الكلاب البوليسية لترويعهم، وفي إحدى الحالات تعرض السجين للعض من قبل الكلاب، .. .
ويصف هيرش هذه الأساليب أنها غير مقبولة في أي ثقافة إنسانية، وبالتحديد الثقافة العربية، التي تعتبر هذه الأعمال أقصى حالات الإذلال.

وتبين التحقيقات والشهادات التي يجمعها هيرش في مقاله كثيرا من المآسي والأعمال الحقيرة البربرية التي يتعرض لها المحتجزون، خاصة تلك التي شهدت إمعانا في انتهاك الأعراض وكرامة السجناء، ومن بين الصور التي تعبر عن أخلاق الجنود الأمريكيين!، تلك الحداثة التي يرويها أحد الجنود الشهود الذي جاء ورأى زملاءه وقد أجبروا محتجزين عراقيين على التعري وغطوا رؤوسهم وأجبروا واحدا منهم على الاستمناء والآخر على الركوع وفتح فمه!!، وقالوا للجندي الشاهد: "أترى هذه الحيوانات عندما نتركها دقائق معدودة، ماذا تصنع؟!"، ولعل هذا السلوك البربري اتجاه المحتجزين، وهذه الصورة الذهنية عن العرب "وصفهم بالحيوانات" تعبر

عن الفلسفة التي تعمقها الإدارة الأمريكية لدى جنودها في احتقار العرب والمسلمين واعتبارهم نوعا رديئا من البشر، أو في مرتبة أدنى من مرتبة البهائم والحيوانات. بل يروي أحد شهود العيان أن أحد المحتجزين المصنف [بأنه خطير للغاية] قد تعرض للضرب على أيدي ضباط الاستخبارات إلى أن مات، ثم وضعوه في صندوق ووضعوا عليه الثلج وأخذوه من السجن، دون تقييد للحالة ودون أن يأخذ رقما بين المساجين!.

وتؤكد كثير من شهادات الجنود أن تعليمات ضباط الاستخبارات الأمريكية كانت واضحة للجنود الذين يتولون التعذيب: تأكدوا أن ليلة المحتجزين ستكون سيئة ..الخ. وتؤكد شهادة أخرى أن أحد السجناء وضع في صندوق وربطت أصابعه بأسلاك كهربائية من الخارج. وقد يصل بك هيرش من خلال مقاله إلى حالة من الذهول والألم الشديد، وربما تشعر بالرغبة بالتقيؤ أو البكاء.

لا يمكن القبول بما يوحي به هيرش وغيره، أن هذه الفظائع تمت بتواطؤ عسكري من أعلى المستويات فقط ، وإنما هي مستمدة أيضا من أخلاق الجنود الأمريكان ومن أصول تجاربهم التاريخية الدموية التي أباحت لهم القيام بهذه الفظائع الأخلاقية، والتي ربما تأبى كرامة البرابرة عليهم القيام بها!. لا يمكن أن يقبل إنسان سوي يحتفظ بمثقال ذرة من إنسانيته بما يقوم به عساكر جنود أبو غريب!، بلا شك إنها تعبير عن جاهلية لم تشهدها البشرية من قبل، إنها جاهلية وبربرية القرن الحادي والعشرين، وإذا أردت شاهدا أكبر على هذه البربرية وهذا الاستهتار فاستمع إلى ما صرحت به القائد كاربنسكي في لقاء إعلامي عندما قالت: "بالنسبة للمحتجزين العراقيين في سجن أبو غريب فالظروف الحالية في السجن أفضل من بيوتهم"، والحمد لله أننا لم ننتظر وقتا كبيرا لنتأكد من صدق هذا القائد والفاتح العظيم في الجيش الأمريكي!!.

للعودة للأعلى